المشرق

السنة الخامسة والخمسون — ايار – حزيران ١٩٦١

المسيح في الاسلام

بقلم ميشال الحايك
دكتور في اللاهوت، اجاز في الاداب
استاذ في الجامعة الكاثوليكية بباريس

الفصل الثاني

زكريا ويحيى المعمدان

يذكر القرآن زكريا في آيات معدودات تقص سيرة الشيخ «الواهن العظم»، وقد شارف الموت حاملًا غصة العاقر فلا ذرية له، وكيف كفل مريم في المحراب فأبصر عندها فاكهة في غير اوانها. كان ذلك من قطف الجنة، من رزق الله. واذ رأى العجوز المعجزة

طابت نفسه وتقوّى ايمانه بالذي « يرزق بغير حساب » . عند ذلك نادى ربه في الخفية متوسلاً اليه ان يهبه ولداً يرثه ، فاعطاه ربه يحيى ، اي يوحنا .

ويحيى هذا كان آية في الزهد والحرمان . لقد غلا كتّاب قصص الأنبياء في وصف تقشّف يحيى ، وقد غلبت عليه حالة البكاء والرهبة خشية النار . ولكن لم يرد شيء في القرآن عن ذلك سوى أنّ يحيى كان حصوراً ، فهو والمسيح الاعزبان الوحيدان بين الانبياء حسب الاسلام وفيه من الاحاديث مثل: «انّ من سنتي النكاح ، والنكاح سنّة ماضية وخلق من اخلاق الانبياء » ...

اما ما ذُكر من قصته وقصة أبيه زكريا فهو مرهون باصوله اليهودية — المسيحية وقد اختلطت أحياناً على مؤلفيها فكوّنت سيرة شك في سرد بعض فصولها غير واحد من مؤرّخي الاسلام كالطبري مثلاً .

وقد حاول المفسرون شرح كلمة يحيى محاولات فاشلة ؛ ولا شك في انها من أصل قريب من السريانية ، وهي لغة المندائيين وكانوا شيعة في شمال الجزيرة العربية تكرّم « يحو » وتعمّد بالمعمودية التي جاء بها سابقاً للمسيح .

مختصر سيرة زكريا ويحيى

وزكريا وهو زكريا بن ادق من ولد داود من سبط يهوذا وكان تزوج اشباع بنت عمران اخت مريم بنت عمران ام المسيح وهو عمران بن ماران بن يعاقيم من ولد داود ايضاً . واسم ام اشباع ومريم حنه وولدت لزكريا يحيى . وكان يحيى ابن خالة المسيح وكان زكريا نجاراً وأشاعت اليهود أنه ركب مع مريم الفاحشة فقتلوه. وكان لما أحس بهم لجأ الى شجرة فدخل في جوفها فدلهم عدوّ الله ابليس عليه فنشروا الشجرة وهو فيها فقطعوها وقطعوه معها.

ولما ولدت اشباع بنت عمران اخت مريم ام المسيح يحيى بن زكريا هربت به من بعض الملوك الى مصر فلما صار رجلاً بعثه الله الى بني اسرائيل فقام فيهم بامر الله ونهيه فقتلوه وكثرت الاحداث في بني اسرائيل فبعث الله اليهم ملكاً من ناحية الشرق يقال له خردوش فقتل منهم على دم يحيى بن زكريا الوفاً من الناس الى ان هدأ الدم بعد خطب طويل[1] .

نذر مريم وكفالة زكريا

وكان زكريا بن برخيا[2] ابو يحيى بن زكريا، وعمران بن ماثان ابو مريم متزوجين باختين احداهما عند زكريا وهي ام يحيى والاخرى منها عند عمران بن ماثان وهي ام مريم فمات عمران بن ماثان وام مريم حامل فلما ولدت مريم كفلها زكريا بعد موت امها لان خالتها اخت امها كانت عنده ، واسم ام مريم حنة بنت فاقوذ ابن قبيل ، واسم اختها ام يحيى الاشباع[3] ابنة فاقوذ .

وكفلها زكريا وكان مسنّاة بيوسف بن يعقوب بن ماثان بن اليعازر بن أليوذ بن أحين بن صادق بن عازور بن أياقيم بن أبيوذ بن زربابل بن شلتيل ابن يوحنيا بن يوشيا بن أمون بن منشا بن حزقيا بن آحاز بن يوتام بن عوزيا

---

١) المسعودي ، مروج الذهب ، ١ : ١٢٠–١٢٢

٢) زكريا بن برخيا هو تاريخياً غير زكريا ابي المعمدان ، فبينهما اكثر من ستمائة سنة ، اذ ان زكريا بن برخيا هو معاصر للنبي اشعيا الذي ذكره في نبوءته ، ٨ : ٢

٣) والاصل لتعريب كلمة « الاشباع » هو سرياني .

ابن يورام بن يهوشافـاط بن آسا بن ابيًا بن رحبعم بن سليمان بن داود ابن عم مريم[٤] .

اما ابن حميد فانه حدثنا عن سلمة بن اسحاق انه قال : مريم فيما بلغني عن نسبها ابنة عمران بن ياشهم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن يوتام بن عزريا بن امصيًا بن ياوش بن احزيهو بن يارم بن يهشافـاط بن اسا بن ابيًا بن رحبعم بن سليمان[٥] .

فولد لزكريا يحيى بن خالة عيسى بن مريم فنُبئ صغيرًا فـاح ثم دخل الشام يدعو الناس ، ثم اجتمع يحيى وعيسى ثم افترقا بعد ان عمّد يحيى عيسى[٦] .

قال الله تعالى : اذ قالت امرأة عمران ربِّ اني نذرت لك ما في بطني محرّرًا — الايات — . قال المفسرون : هي حنة بنت فاقوذ جدة عيسى عليه السلام . وعمران : قال ابن عباس : هو عمران بن ماثان وليس بعمران ابي موسى اذ بينهما الف وثمانمائة سنة . وكانت بنو ماثان رؤوس بني اسرائيل واحبارهم وملوكهم . وقال ابن اسحق : هو عمران بن ساهم بن امور ... ابن سليمان بن داود عليه السلام.

وكانت القصة في ذلك ان زكريا بن يوحيًا وعمران بن ماثان كانا متزوجين بأختين ، احداهما عند زكريا بن يوحيًا وهي ايشاع بنت فاقوذ ام يحيى،وكانت الاخرى عند عمران وهي حنّة بنت فاقوذ ام مريم وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى ايست وعجزت وكانوا اهل بيت من الله بمكان فبينما هي في ظل

٤) هذا النسب هو ذاته كما في الكتاب المقدس ؛ راجع انجيل متى ١ : ١٦ ، لولا بعض الاخطاء التي قد تكون نتيجة تداول النص بين ايدي الكتبة ، وهكذا تجد تحريفًا لبعض الاسماء . وهي في الانجيل كذلك تُنزلًا من ابراهيم الى داود ، وهذا ما اهمله الطبري ، ومن داود الى سليمان ، رحبعم ، ابيا ، آسا ، يوشافاط ، يورام ، عزيا ، يوتام ، آحاز ، حزقيا ، منسى ، آمون ، يوشيا ، يكنيا ، شالتيل ، العازر ، يعقوب ، يوسف .

٥) لا ذكر في الانجيل لنسب مريم ، ولذلك حار الطبري بين اسماء اخذت هنا وهناك وحاول التوفيق بين ما يعرف عن قرابة مريم ويوسف من جهة ، وبين ما يقول القرآن عن صلة مريم بعمران من جهة اخرى .

٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ — : ٧١١—٧١٣

شجرة اذ نظرت طائرًا يطعم فرخاً فتحركت عنـد ذلك شهوتها للولد. ودعت الله تعالى ان يهب لها ولدًا وقالت: اللهم لك عليَّ ان رزقتني ولدًا أن اتصدَّق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه نذرًا وشكرًا فحملت بمريم عليها السلام فحررت ما في بطنها ولم تعلم ما هو فقالت: ربي اني نذرت لك ما في بطني محررًا أي عتيقاً من الدنيا واشغالها خالصاً لله تعالى وخادماً لبيتك المقدس حبساً عليه مفرغاً لعبادة الله وخدمته — فتقبَّل مني — الكائن، انك انت السميع العليم (٧).

قالوا وكان المحرَّر اذا حرَّر ونذر جعل المحرَّر والمنذور في الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يبرح عنها حتى يبلغ الحلم فاذا بلغ خُيِّر بين ان يقيم وبين أن يذهب حيث شاء، وان اراد ان يخرج بعد التخيير استأذن رفقاءه من السدنة ليكون خروجه على علم منهم. ولم يكن من بني اسرائيل وعلمائهم الا من في نسله محرر لبيت المقدس، ولم يكن محررا الا الغلمان، وكانت الجارية لا تكلف ذلك لما يصيبها من الحيض والاذى، فحررت ام مريم ما في بطنها فلما فعلت ذلك قال لها زوجها: ويحكِ ما صنعت؟ أرأيتِ إن كان في بطنك انثى والانثى عورة لا تصلح لذلك فوقعا جميعاً في همّ من ذلك.

فهلك عمران وحنة حامل بمريم، فلما وضعتها اذا هي جارية، فقالت حنة وكانت ترجو ان يكون غلاماً اعتذارًا الى الله: ربِّ اني وضعتها أنثى، والله اعلم بما وضعت. وليس الذكر كالانثى — اي في خدمة الكنيسة والعبادة فيها

٧) قابل هـذا بنصوص الاناجيل المنحولة حيث تجد هذه القصة التي لا يستطيع علم التاريخ ان يثبت صحتها: «وبينما كانت حنة تبكي (لغياب زوجها يوياقيم) في جنينة دارها رفعت في صلاتها عينيها الى الله فرأت عشًّا في شجرة غار، فتضرعت لله هاتفة والتنهدات تقطع كلامها: «اللهمَّ السيد الضابط الكل الذي وهبت نسلا لكل المخلائق، للوحوش والدواب والحيات والاسماك والطيور، والذي جعلتها جميعاً تفرح بذريتها والذي حرمتني انا من نعمة عطاياك هذه. انت تعلم اللهم اني منذ بدء زواجي نذرت ان احرر لبيتك المقدس الولد الذي تهبني اياه ذكرًا كان ام انثى»، انجيل متى المزعوم ٣ : ٢ ؛ انجيل يعقوب الموضوع ٣: ١-٣ ؛ اما في النص الارمني لكتاب الطفولة ٢:٢، فهو يوياقيم وليست حنة من يدعو الله ليرزقه ولدًا.

لعورتها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس والاذى — واني سميتها مريم — وهي بلغتهم العابدة والخادمة . وكانت مريم عليها السلام اجمل النساء وامثلهن في وقتها[٨] .

ثم لفّتها في خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الاحبار ابنـاء هارون وهم يلون من بيت المقدس ما يلي بني شيبة من الكعبة فقـالت : دونكم هذه المنذورة . فتنافسوا فيها لانها بنت امامهم وصاحب قربانهم . فقال زكريا: انا احق بها لان خالتها عندي . فقالوا : لكننا نقترع عليها لان خالتها عندي . فقالوا : لكننا نقترع عليها . فألقوا أقلامهم في نهر جار قيل هو نهر الاردن[٩] فألقوا فيه اقلامهم التي كانوا يكتبون بها التورية ، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت اقلامهم[١٠] .

٨) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٧١ ؛ الكسائي ، قصص الانبياء ، ٣٠١-٣٠٢ .

٩) يقول الكسائي اخم القوا اقلامهم في عين سلوان ، قصص الانبياء ، ٣٠٢ .

١٠) تذكر الاناجيل المنحولة هذا الاقتراع وترعم ان زكريا نفسه اجراه بامر ملاك الرب اذ ظهر له قائلاً : يا زكريا ، يا زكريا ، اخرج (وكان يصلي لاجل مريم في قدس الاقداس من الهيكل) واجمع الآيبين من الشعب ، وليأت كلٌّ منهم بعروسة ، والذي يبعث الله له بمعجزة تصبح زوجاً له . فخرج المنادون واعلنوا ذلك في كل بلاد يهوذا ، ونفخ في الصور فتناظر الجميع . اما يوسف (وكان نجاراً) فترك فأسه وجاء ملتحقاً بهم . فاجتمعوا وجاؤوا حاملين مراوحهم الى رئيس الكهنة . وهذا اخذ المراوح ودخل الهيكل فصلى ولما انتهى من صلاته اخذ المراوح فخرج واعادها لاصحابها ولم تحدث معجزة . ولما استرجع يوسف مروحته ، اذا بحمامة تخرج منها وتطير فوق رأسه . عندئذ قال رئيس الكهنة ليوسف : « لقد وقعت القرعة عليك لتكفل عذراء الرب » . اما يوسف فقال معترضاً : « ان لي بنين وانا شيخ ، وهي طفلة (وكانت في الثانية عشرة) ؛ فلا يليق بان اصبح هزأة لبني اسرائيل » . فقال له رئيس الكهنة : « اتقِ الرب الهك . . . » ويوسف امتلأ خوفاً وكفل مريم ؛ انجيل يعقوب الموضوع ، ٩ : ١-٣ ؛ قابل بانجيل متى المزعوم ، ٨ : ١-٥ ، حيث تجد بعض التفاصيل والمتناقضات مع النص الاول : عوضاً عن ١٢ سنة ، ١٤ سنة كذا كان عمر مريم وقت الاقتراع . وهذه القرعة وقعت بين اسباط اسرائيل الاثني عشر ؛ اسم رئيس الكهنة ايطار . راجع ايضاً قصة يوسف النجار ، في نصها العربي القديم ، الذي يذكر الاقتراع ونتيجته دون ان يذكر الاقلام او المراوح ، ٣-٣

بشارة زكريا ومولد يحيى

فأخذها وكفلها وضمّها الى خالتها ام يحيى واسترضع لها حتى كبرت فبنى لها غرفة في المسجد لا يُرقى اليها الا بسلّم ولا يصعد اليها غيره وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. فيقول : أنّى لكِ ذلك فتقول : هي من عند الله[١٢] فلما رأى زكريا ذلك منها دعا الله تعالى ورجا الولد حيث رأى فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فقال : ان الذي فعل هذا بمريم قادر على ان يُصلح لي زوجتي حتى تلد فقال : ربِّ هبْ لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء. فبينما هو يصلي في المذبح الذي لهم، فاذا هو برجل شاب، هو جبرائيل ففزع زكريا منه فقال له : ان الله يبشرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله، يعني عيسى بن مريم عليه السلام. ويحيى اول من آمن بعيسى وصدّقه وذلك ان امه كانت حاملاً به فاستقبلت مريم وهي حامل بعيسى فقالت لها : يا مريم أحامل انتِ ؟ فقالت لماذا تسألينني ؟ قالت : اما اني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك[١٣] ؛ فذلك تصديقه. وقيل صدّق المسيح عليه السلام وله ثلاث سنين، وسمّاه الله تعالى ولم يكن قبله من تسمى بهذا الاسم، قال الله تعالى : لم نجعل له من قبل سميًّا، وقال تعالى : والسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا. قيل : اوحش ما يكون ابن آدم في هذه الايام الثلاثة فسلمه الله من وحشتها. وانما وُلد يحيى قبل المسيح بثلاث سنين وقيل بستة اشهر. وكان لا يأتي النساء ولا يلعب مع الصبيان. قال : ربِّ أنى يكون لي ولد وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ؟ وكان عمره اثنين وتسعين سنة. فقيل له لذلك : الله يفعل ما يشاء. وانما قال ذلك استخبارا هل يُرزق الولدَ من امرأته العاقر ام غيرها، لا انكارًا لقدرة الله تعالى. قال : ربِّ اجعل لي آية، قال : آيتك ان لا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزًا. قال : أمسك الله لسانه عقوبةً لسؤاله — الآية — والرمز : الاشارة[١٤].

---

١١) هذه المعجزة التي اوردها القرآن وتناقلها المؤرخون من بعده، لم تذكرها الاناجيل المرحاة ولا الموضوعة منها.

١٢) قابل بكلام الانجيل، لوقا، ١ : ٤١—٤٤.

١٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ١ : ٢١١—٢١٣ ؛ قابل بنص الانجيل : «كان

قال محمد بن اسحاق : ثم اصابت بني اسرائيل ازمة وهي على ذلك من حالها (أي تأكل من قطف الجنة) ثم ضعف زكريا على حملها فخرج الى بني اسرائيل وقال : يا بني اسرائيل تعلمون والله اني لقد كبرت وضعفت عن حمل ابنة عمران فأيكم يكفلها بعدي ؟ فقالوا : والله لقد جهدنا واصابنا من الجهد ما ترى. فتدافعوها بينهم ، ثم لم يجدوا من يحملها فتقارعوا عليها بالاقلام ، فخرج السهم على رجل صالح نجار من بني اسرائيل يقال له يوسف بن ماثان وكان ابن عم مريم فحملها . قال : فعرفت مريم من وجهه شدة مؤنة ذلك عليه فقالت له : يا يوسف أحسن الظن بالله فان الله سيرزقنا . فجعل يوسف يرزق لمكانها منه فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها ، فاذا ادخله عليها وهي

في ايام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة ابيا وامرأته من بنات هرون اسمها اليصابات وكانا كلاهما بارين امام الله . . . ولم يكن لهما ولد لان اليصابات كانت عاقرًا ، وكانا كلاهما قد تقدما في ايامهما . وبينما كان يكهن في نوبة فرقته امام الله اصابته القرعة على عادة الكهنوت ان يدخل هيكل الرب ويبخر ، وكان كل جمهور الشعب يصلي خارجًا . . . فتراءى له ملاك الرب واقفًا على يمين مذبح البخور فاضطرب زكريا حين رآه ووقع عليه خوف ، فقال له الملاك : لا تخف يا زكريا فان طلبتك قد استجيبت وامرأتك اليصابات ستلد ابنًا فتسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج ويفرح كثيرون بمولده لانه يكون عظيمًا قدام الرب ولا يشرب خمرًا ولا مسكرًا ويمتلئ من الروح القدس وهو في بطن امه ويردّ كثيرين من بني اسرائيل الى الرب الههم . . . فقال زكريا للملاك : بمَ اعلم هذا فاني انا شيخ وامرأتي قد تقدمت في ايامها . فاجاب الملاك وقال له : انا جبرائيل الواقف امام الله وقد أُرسلتُ لاكلمك وأبشرك بهذا وها انك تكون صامتًا فلا تستطيع ان تتكلم الى يوم يكون هذا لانك لم تصدق كلامي الذي سيتم في اوانه . وكان الشعب منتظرين زكريا متعجبين من ابطائه في الهيكل ، فلما خرج لم يستطع ان يكلمهم فعلموا انه قد رأى في الهيكل رؤيا ، وكان يشير اليهم وبقي ابكم . . . اما اليصابات فلما تمّ زمان وضعها ولدت ابنًا فسمع جيرانها واقاربها ان الرب قد عظّم رحمته لها ففرحوا معها . وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي فدعوه باسم ابيه زكريا فاجابت امه قائلة : كلّا لكنه يدعى يوحنا ، فقالوا لها : ليس احد في عشيرتك يدعى بهذا الاسم ، ثم أومأوا الى ابيه ماذا يريد ان يُسمّى ، فطلب لوحًا وكتب فيه قائلًا يوحنا ، فتعجبوا كلهم . وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم مباركًا الله » (لوقا ، ١ : ٥-٧ ، ٥٧-٦٤ .

في الكنيسة أغاه الله تعالى وكثّره ، فيدخل اليها زكريا فيرى عندها فضلاً من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف فيقول لها : يا مريم أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب[١٤] . .

الا ترى وفقك الله الى زكريا عليه السلام لما دخل على مريم المحراب وهي بتول محررة ... ورأى عندها رزقاً فطلب من عند الله ذلك ان يهبه ولداً حين تعشق بجالها يقول : ربِّ هب لي من لدنك ... ذرية طيبة انك سميع الدعاء. ومريم في خياله من حيث مرتبتها وما اعطاها الله من الاختصاص بالعناية الالهية فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ... ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً ، وهو الكمال لان مريم كملت فكمل يحيى ، وحصوراً وهو الذي اقتطعه الله عن مباشرة النساء، وهو المتين عندنا ، كما اقتطع مريم عن مباشرة الرجال وهي البتول فكان يحيى عليه السلام زائر النساء. كما كانت حنة مريماً ، لان المريم المنقطعة من الرجال ، واسمها حنه ومريم لقب لها وصفت به كما ذكرناه آنفاً . فانظر ما أثر سلطان الخيال عن زكريا في ابنه يحيى عليه السلام حين استفرغت قوة زكريا في حسن حال مريم لما اعطاها الله من المنزلة[١٥] .

روي ان جماعة قصدوا دار زكريا عليه السلام فاذا فتاة جميلة رائعة قد اشرق البيت لها حسناً قالوا : من انت ؟ قالت : انا امرأة زكريا عليه السلام. قالوا بينهم : كنّا نرى نبيّ الله زكريا لا يريد الدنيا فاذا هو قد اتخذ امرأة

---

١٤) الثعلبي ، قصص الانبياء ، ٣٧٣ ؛ هذا الافتراع الثاني ان هو استنبط الا ليوفق بين امرين ، اولهما ما يقول القرآن عن كفالة زكريا لمريم ، وثانيهما ما تقول الاناجيل المنحولة عن كفالة يوسف لمريم ؛ ولدى هذا المأزق التاريخي اختلق المؤرخ القصة هذه فتشابه دور زكريا ودور يوسف فاذا هما نجاران واذا هما كافلان مريم . اما تردد زكريا في حمل بنت عمران في زمن أزمة بني اسرائيل ، فهو تردد يوسف امام الكفالة ذاتها ولم يكن ذلك بسبب ضيقة العيش فحسب بل نظراً لكبره، انظر اصل ذلك في انجيل يعقوب المنحول ٩ : ٢ ؛ انجيل الطفولة الارمني ، ٤ : ٥-٦ ؛ انجيل متى المزعوم ، ٨ : ٤ .

١٥) ابن العربي ، الفتوحات المكية ، ٣ : ٦٥٣

جميلة رائعة ، فقال عليه السلام : انما انا تزوجت امرأة جميلة رائعة لاكف بها بصري واحفظ بها فرجي[١٦] .

لقد روي عن زكريا عليه السلام انه كان يعمل في حائط بالطين وكان اجيراً لقوم فقدموا له رغيفة اذ كان لا يأكل الا من كسب يده . فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا ان الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال : اني اعمل لقوم بالاجرة وقدموا اليَّ الرغيف لاتقوى به على عملهم فلو اكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم[١٧] .

مصرع زكريا

لما قتل يحيى وسمع ابوه بقتله مرَّ هارباً فدخل بستاناً عند بيت المقدس فيه اشجار فأرسل الملك في طلبه فمرَّ زكريا بالشجرة فنادته : هلمَّ يا نبي الله . فلما انشقت فدخلها فانطبقت عليه وبقي في وسطها . فأتى عدو الله ابليس فأخذ هدب ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه اذا اخبرهم . ثم لقي الطلب فأخبرهم فقال لهم : ما تريدون ، فقالوا : نلتمس زكريا ، فقال : انه سحر هذه الشجرة فانشقت له فدخلها ، قالوا : لا نصدقك ، قال : فان لي علامة تصدقوني بها ، فأراهم طرف ردائه فأخذوا الفؤس وقطعوا الشجرة باثنتين وشقوها بالمنشار فمات زكريا فيها . فسلَّط الله عليهم اخبث اهل الارض فانتقم به منهم[١٨] .

وقيل ان السبب في قتله ان ابليس جاء الى مجالس بني اسرائيل فقذف

---

١٦) الترمذي ، نوادر الاصول ، ١٧٥ .

١٧) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٤ : ٢٦٧ ؛ الزبيدي ، اتحاف السادة المتقين ، ١٠ : ٢٨ ؛ ابو طالب المكي ، قوت القلوب ، ٤ : ٣٠ .

١٨) حسب نص الطبري ان الشيطان تشبه لزكريا بصورة راع واوعز اليه ان يدخل الشجرة فدل عليه طالبيه مشيراً الى هدب ردائه ، ويزيد الطبري : « وليس تجد يهودياً الا تلك الهدبة في ردائه » . ولكن سبب الهدبة هو غير ذلك ، راجع الكتاب المقدس ، سفر العدد ، ١٥ : ٣٨ . . .

زكريا بريم ... فطلبوه فهرب من دخوله الشجرة نحو ما تقدم[١٩].

روي ان زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني اسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار الى رأس زكريا ، فأنّ منه أنّة ، فأوحى الله تعالى اليه : يا زكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لامحونّك من ديوان النبوّة ، فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قُطع شطرين[٢٠].

ويروى في بعض الاخبار ان زكريا عليه السلام لما وضع على رأسه المنشار أنّ أنّة . فأوحى الله تعالى اليه : ان صعدت اليّ منك أنة اخرى لاقلبن السموات والارض بعضها على بعض[٢١].

---

١٩) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١ : ٢١٧-٢١٨ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣٠٣ : ٧٣٢ ؛ الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٢٨٠-٢٨١ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ١ : ١٢٠-١٢١ : لقد خلط المؤرخون هنا بين احداث عديدة فنسبوا قتل زكريا لامرين : اولهما هربه بعد موت ابنه يحيى ودخوله الشجرة وهذا ما تذكره الاناجيل الموضوعة ولكن على نحو آخر وهو ان هيرودس ارسل فقتل الاطفال من عمر اثنين فما دون . وكان يطلب يوحنا لانه كان سمع من المجوس ان طفلاً وُلد وسيكون الملك المنتظر ان يملك على بني اسرائيل ، فلما سمعت اليصابات بطلب هيرودس حملت ابنها وهربت به الى مكان مقفر من الجبل ونادت الجبل لينفتح لها فانشق الجبل فاختبأت فيه مع ولدها . وعاد رسل هيرودس يطلبون الصبي من ابيه ، فاقسم زكريا انه يجهل موضع الام والولد ، فقتله هيرودس ليتخذ قرب المذبح ، راجع انجيل يعقوب الموضوع ، ٢٢-٢٣ : انجيل الطفولة ، في نصه الارمني ، ١٤ : ١-٥ .

والسبب الثاني في قتل زكريا هو قذفه بالفاحشة زورًا ؛ وهذه التهمة تذكرها الاناجيل المنحولة ايضًا عن يوسف النجار الذي كفل مريم ، ولكن يوسف فقد حوكم واذ ظهرت براءته قام يصبه اذى ، راجع انجيل متى المزعوم ، ١٣ : ١ ؛ انجيل يعقوب الموضوع ، ١٥ : ٤ ؛ انجيل الطفولة الارمني ، ٧ : ٤ .

اما قصة هدب الرداء ، فهي من اصل عبراني وقد نسبت الى موت النبي اشيا فتخالطت كل هذه القصص وفيها التاريخ والاسطورة فأوجدت النص العربي كما قرأته .

٢٠) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٤ : ٩٨ ؛ مكاشفة القلوب ، ٨ ؛ الزبيدي ، اتحاف السادة المتقين ، ٩ : ١٤٦ .

٢١) ابن عباد الرندي ، الرسائل الصغرى ، طبعة بولس نويا ، في المشرق ، ١٩٥٢ ، ١ : ٧١ .

شمائل يحيى

وفي بعض الاخبار أنه لما وُلد يحيى رُفع الى السما. فتغذى بأنهار الجنة حتى فُطم ، ثم أنزل الى ابيه وكان يضيء البيت لنوره وحسن وجهه وجماله[٢٢].

هذه حكمة الاولية في الاسما. فان الله سمّاه يحيى اي يحيى به ذكر زكريا . ولم يجعل له من قبل سميًا ، فجمع بين حصول الصفة التي فيمن غير ممن ترك ولدًا يُحيي ذكرَه وبين اسمه بذلك فسمّاه يحيى . فكان اسمه يحيى كالعلم الذوقي فان آدم عليه السلام حي ذكره بشيث ، ونوحاً حي ذكره بسام وكذلك الانبياء عليهم السلام . ولكن ما جمع الله لاحد قبل يحيى بين الاسم والعلم منه .

ثم انه تعالى بشّره بما قدّمه من سلامه عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًا . فجاء بصفة الحياة وهي اسمه ، وأعلمه بسلامه عليه ، وكلامه صدقٌ فهو مقطوع به وان كان قول الروح[٢٣]: والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيًا اكل في الاتحاد والاعتقاد وارفع للتأويلات . فان الذي اخرقت فيه العادة في حق عيسى انما هو النطق فقد تمكن عقله وتكمل في ذلك الزمان الذي انطقه الله ، ولا يلزم التمكن من النطق على اي حالة كان الصدق فيما به نطق بخلاف المشهود له كيحيى . فسلام الحق عن يحيى من هذا الوجه ارفع للالتباس الواقع في العناية الالهية من سلام عيسى على نفسه ، وإنْ كانت قرائن الاحوال تدل على قربه من الله في ذلك وصدقه ، اذ نطق في معرض الدلالة على براءة امه في المهد فهو احد الشاهدَين ، والشاهد الآخر هز الجذع اليابس فسقط رطباً جنياً من غير فحل ولا تذكير ، كما ولدت مريم عيسى من غير فحل ولا ذكر ولا جماع عرفي معتاد[٢٤] .

انما خصت الكلمة اليحيوية بالحكمة الجلالية لان الغالب على حاله احكام الجلال من القبض والخشية والحزن والبكا. والجد في العمل والهيبة والرقة

٢٢) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٧٦.
٢٣) الروح اي عيسى .
٢٤) ابن العربي ، فصوص الحكم ، ٢٤١-٢٤٤.

والخشوع في القلب ، فشربه من حضرة ذي الجلال فكان دائماً تحت القهر ، وقد خذت الدموع في خده اخاديد من كثرة البكاء ، وكان لا يضحك الا ما شاء الله . وكل ذلك من مقتضيات حضرة الجلال والقيام بحقها ، ولذلك قُتل في سبيل الله وقُتل في دمه سبعون الفاً حتى سكن دمه من فورانه[٢٥] .

واختلفوا لما سمي يحيى . قال ابن عباس : لان الله تعالى احيا به عقر امه. وقال قتاده وغيره : لان الله تعالى احيا قلبه بالايمان والنبوة . وقال الحسن بن فضل : لان الله تعالى احياه بالطاعة حتى لم يتغير ولم يهمّ بمعصية ، دليلُه ما اخبرني به الحسن بن فنخويه باسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلعم : ما من احد يلقى الله عز وجلّ الا قد همّ بخطيئة او عملها الا يحيى بن زكريا فانه لم يهمّ ولم يعمل . قال الاستاذ : وكان شيخنا ابو القاسم الجنيد يقول : سمي بذلك لانه استشهد والشهداء عند ربهم يرزقون. قال النبي صلعم : من هو ان الدنيا على الله ان يحيى بن زكريا قتلته امرأة. قال: وسمعت ابا منصور الخشاوي يقول: قال عمر بن عبدالله المقدسي: اوحى الله الى ابراهيم الخليل عليه السلام أن قل ليساره — وكان اسمها كذلك — : اني مخرج منكما عبداً لا يهمّ بمعصيتي اسمه حيّ فهبي له من اسمك حرفاً ، فوهبت له اول حرف من حروف اسمها الياء فصار يحيى وصار اسمها ساره — مصدّقاً بكلمة من الله — يعني عيسى عليه السلام فسمي كلمة لان الله تعالى قال له من غير أب : كن فكان ، فوقع عليه اسم الكلمة لانه بها وُجد . ويحيى اول من آمن بعيسى وصدّقه . . .

قال سعيد بن المسيَّب : وسيدا ، السيد : الفقيه العالم . وقال سعيد بن جبير : السيد الذي يطيع ربه عز وجل . وقال الضحاك : السيد الحسن الخُلق. وقال عكرمة : الذي لا يغضب . وقال سفيان : الذي لا يحسد — وحصوراً ، قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : هو الذي لا يأتي النساء. ولا يقربهنّ . فَعول بمعنى فاعل ، يعني انه حصر نفسه عن الشهوات . وقال ابن المسيَّب والضحاك : هو العنين الذي لا باءة له . ودليل على هذا التأويل ما اخبرني به

٢٥) القاشاني ، شرح . . . ، ٣٤١-٣٤٢

ابن فتحويه باسناده عن ابي صالح عن ابي هريرة قال : سمعت رسول الله صلعم يقول : كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه ان شاء او يرحمه الا يحيى بن زكريا فانه كان سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين . ثم اومأ النبي صلعم الى قذاة من الارض فاخذها قال...[٢٦] وقال المدني : الحصور الذي لا يدخل في اللعب ولا الاباطيل[٢٧] .

فلما وُلد رآه ابوه حسن الصورة قليل الشعر قصير الاصابع مقرون الحاجبين دقيق الصوت قويًا في طاعة الله مذ كان صبيًا . قال الله تعالى : آتيناه الحكم صبيًا . قيل انه قال له يومًا الصبيان امثاله : يا يحيى اذهب بنا نلعب ، فقال لهم : ما للعب خُلقت .

وكان يأكل العشب واوراق الشجر[٢٨] ، وقيل كان يأكل خبز الشعير . ومر به ابليس ومعه رغيف شعير فقال : انت تزعم انك زاهد وقد ادخرتَ رغيف شعير ، فقال يحيى : يا ملعون هذا القوت . فقال ابليس : ان الاقل من القوت لمن يموت ، فاوحى الله اليه : اعقلْ ما يقول لك .

ونُبيّ صغيرًا فكان يدعو الناس الى عبادة الله ولبس الشعر ، فلم يكن له دينار ولا درهم ولا مسكن يسكن اليه أين جنّه الليل ، ولم يكن له دينار ولا درهم ولا أمة واجتهد في العبادة فنظر يومًا الى بدنه وقد نحل فبكى ، فأوحى الله اليه : يا يحيى أتبكي لما نحل من جسمك ، وعزتي وجلالي لو اطلعتَ في النار اطلاعةً لتدرعتَ الحديد عوض الشعر ، فبكى حتى اكلت الدموع لحم خديه وبدت اضراسه للناظرين ، فبلغ ذلك امه فدخلت عليه واقبل زكريا ومعه الاحبار فقال : يا بُنيّ ما يدعوك الى هذا ، قال : أنت أمرتني بذلك حيث قلت : ان بين الجنة والنار عقبة لا يجوزها الا الباكون من

٢٦) الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٧٤-٣٧٥ .

٢٧) حذفت الجملة التالية رفقًا بالقارئ .

٢٨) وقد اورد الانجيل وصفا لزهد المعمدان : « وكان لباسه يوحنا من وبر الابل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعامه الجراد وعسل البر » ٣ : ٤ ؛ « عظيمًا امام الرب لا يشرب خمرًا ولا مسكرًا » لوقا ١ : ١٥ ؛ وهذا الرفض الانجيلي لكل لهو هو مصدر الحادثة التي اوردها مؤرخو الاسلام عن رفضه اللعب مع الصبيان .

خشية الله ، فقال : فابكِ واجتهدْ اذن . فصنعت له امه قطعتي لبد على خديه تواري اضراسه فكان يبكي حتى يبأها . وكان زكريا اذا اراد يعظ الناسَ نظر فان كان يحيى حاضرًا لم يذكر جنّة ولا نارًا[٢٩] .

دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج فنظر الى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر الى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدوا انفسهم الى اطراف بيت المقدس فهاله ذلك ، فرجع الى ابويه فمرَّ بصبيان يلعبون ، فقالوا له : يا يحيى هلمَّ للعب فقال : اني لم اخلق للعب . قال : فاتى ابويه فسألها أن يُدرعاه الشعر ففعلا فرجع الى بيت المقدس وكان يخدمه نهارًا ويصبح فيه ليلًا حتى اتى عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولزم اطواد الارض وغيرانَ الشعاب فخرج ابواه في طلبه فادركاه على بحيرة الاردن وقد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزتك وجلالك لا اذوق بارد الشراب حتى اعلم ابن مكاني منك ، فسأله ابوه أن يفطر على قرص كان معها من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فُدح بالبرّ ، فردّه ابواه الى بيت المقدس . فكان اذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمَدَر ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه ، فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت اضراسه للناظرين ، فقالت له امه : يا ابني لو أذنت لي ان اتخذ لك شيئاً تواري به اضراسك عن الناظرين فاذن لها فعمدت الى قطعتي لبد فألصقتها على خديه فكان اذا قام يصلي بكى ، فاذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت اليه امه فعصرتها ، فاذا رأى دموعهُ تسيل على ذراعي امه قال : اللهم هذه دموعي وهذه امي وأنا عبدك وانت ارحم الراحمين . فقال له زكريا يوماً : يا بني انما سألت ربي ان يهبك لي لتقر عيناي بك . فقال يحيى : يا أبت ان جبريل عليه السلام اخبرني ان بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها الا كل بكّاء ، فقال زكريا عليه السلام : يا بُنيّ فابكِ[٣٠] .

---

٢٩) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١ : ٢١٣ ؛ الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٣٧٩ .

٣٠) الغزالي ، احياء علوم الدين ٤ : ١٣١ ؛ الزبيدي ، اتحاف السادة المتقين ، ٩ : ٢٤٨ ؛

روي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام انه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركاً للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس فسألته امه ان يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل فأوحى الله تعالى اليه : يا يحيى آثرت عليَّ الدنيا ، فبكى ونزع الصوف وعاد الى ما كان عليه[٣١].

قال علي بن أبي طالب : شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى اصبح فأوحى الله تعالى اليه : يا يحيى أوَجدتَ داراً خيراً لك من داري ، أم وجدتَ جواراً خيراً لك من جواري ، فوَعزتي وجلالي يا يحيى لو اطلعتَ على الفردوس اطلاعةً لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقاً. ولو اطلعتَ الى جهنم اطلاعةً لذاب شحمك ولبكيتَ الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح[٣٢].

كان طعام يحيى بن زكريا العشب وانه كان ليبكي من خشية الله تعالى ما لو كان القار على عينيه لاحرقه ، ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه[٣٣].

عن المحاسبي : أوحى الى يحيى بن زكريا عليهما السلام : اني قضيت على نفسي ان لا يحبني عبد من عبادي أعلمُ ذلك منه الا كنتُ سمعَه الذي يسمع به وبصرَه الذي يبصر به ولسانَه الذي يفهم به فاذا كان ذلك كذلك بغَضتُ اليه الاشتغال بغيري وأدمتُ فكرته وأسهرتُ ليله وأظمأتُ نهاره.

يا يحيى انا جليس قلبه وغاية امنيته وامله أهب له كل يوم وساعة فيتقرب مني واتقرب منه واسمع كلامه وأجيب تضرعه ، فوَعزتي وجلالي لابعثنه مبعثاً

عبيد الضرير ، تزهة الناظرين ، ٢٦١ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١ : ٢١٣ ؛ قابل بما يقول الانجيل عن زهد يوحنا ، متى ، ٣ : ١-٦ ؛ مرقص ، ١ : ٤-٦ ؛ لوقا ، ١ : ١٥ ، ٨٠ ؛ ٣ : ٢-٣ .

٣١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٤ : ١٦٣ ؛ الزبيدي ، اتحاف السادة المتقين ، ٩ : ٣٤٧ ؛ ابو طالب المكي ، قوت القلوب ، ٣ : ١٩٢ ؛ قابل بالانجيل ، متى ، ٣ : ٤ ، ١١ ؛ ٨ .

٣٢) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ١ : ٢٤٣ ؛ الزبيدي ، اتحاف السادة المتقين ، ٥ : ١٨٧ ؛ ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الاولياء ، ٨ : ٢٣٤ .

٣٣) ابو بكر الطرطوشي ، سراج الملوك ، ٢٥ .

يغبطه به النبيون والمرسلون ، ثم آمر منادياً ينادي : هذا فلان بن فلان ولي الله وصفيه وخيرته من خلقه دعاه الى زيارته ليشفي صدره من النظر الى وجهه الكريم ، فاذا جاءني رفعت الحجاب فيما بيني وبينه فنظر اليّ كيف شاء ، وأقول أبشر ، فوعزتي وجلالي لاشفينّ صدرك من النظر اليّ ولأجددنّ كرامتك في كل يوم وليلة وساعة[٢٤] .

قال النبي صلعم : ان الله امر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ليعمل بها ويأمر بني اسرائيل ان يعملوا بها وانه كاد يبطئ ، فقال عيسى : ان الله امرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني اسرائيل انْ يعملوا بها فاما ان تأمرهم واما ان آمرهم ؟ فقال يحيى : اخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي او أعذّب .

فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف ، فقال : ان الله أمرني بخمس كلمات ان اعمل بهنّ وآمركم ان تعملوا بهن اولهن ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً فان مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب او ورق ، فقال : هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ اليّ ، فكان يعمل ويؤدي الى غير سيده فأيكم يرضى ان يكون كذلك .

وان الله يأمركم بالصلاة فاذا صليتم فلا تلتفتوا فان الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت .

وامركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرّة فيها مسك وكلهم يعجب او يعجبه ريحها وان ريح الصائم عند الله اطيب من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة فان مثل ذلك كمثل رجل اسره العدو فأوثقوا يده الى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : انا افديه منكم بالقليل وبالكثير ففدى نفسه منهم .

وأمركم ان تذكروا الله فان مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في اثره سراعاً حتى اتى على حصن حصين فاحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان الا بذكر الله[٢٥] .

---

٢٤) ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الاولياء ، ١٠ : ٨٢ .

٢٥) مخطوطة مكتبة الاسكوريال ، عدد ١٩٦٩ : ١٣ صفحة ٧ ، ذكره ابن

... عن النبي انه قال : رحم الله أخي يحيى حين دعاه الصبيان الى اللعب وهو صغير فقال: ما للعب خُلقت، فكيف بمن ادرك الحنث من مقاله[٣٦].

يروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام انه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لِمَ فعلت هذا ، فقال : ما ظننتها الا جداراً[٣٧].

قال يحيى بن زكريا للمكذبين من بني اسرائيل : يا نسل الافاعي من دلكم على الدخول في المساخط الموبقة بكم ! ويلكم تقربوا بعمل صالح ولا تغرنكم قرابتكم من ابراهيم فان الله قادر على ان يستخرج من هذه الجنادل نسلاً لابراهيم ! ان الفأس قد وُضعت في اصول الشجر فأخلق بكل شجرة مرّة الطعم أن تقطع وتلقى في النار[٣٨].

قال يحيى لعيسى عليهما السلام : لا تكن حديد النظر الى ما ليس لك فانه لن يزني فرجك ما حفظتَ نظرك . فان استطعت ان لا تنظر الى ثوب المرأة التي لا تحل لك فافعلْ ولن تستطيع ذلك الا باذن الله تعالى[٣٩].

قيل ليحيى : ما بدء الزنا ؟ قال : النظر والتمني[٤٠].

بلاثيوس في الموسوعة الشرقية، ١٠ : ٥٦٠ ، عدد ١٤٣ ، ثانياً ؛ السمرقندي ، تنبيه الغافلين، ١٤٣ .

٣٦) المتقي ، كنز العمال ، ٦ : ٢٠٤٢ ذكره اسين بلاثيوس في الموسوعة الشرقية ١٩ : ٥٩٥ عدد ٣١٢ .

٣٧) الغزالي ، احياء علوم الدين، ٦ : ٢٨٦ ؛ الزبيدي، اتحاف السادة المتقين، ١٠ : ١٠١

٣٨) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ١ : ٢٧٧ ؛ قابل بما ورد في الانجيل على لسان النبي ذاته ؛ متى ٣ : ٧-١٠ ؛ لوقا ٣ : ٧-٩ : « يا اولاد الافاعي من دلكم على الهرب من السخط الآتي ، اثمروا ثمرًا يليق بالتوبة ولا يخطر لكم ان تقولوا في نفوسكم ان ابانا ابراهيم لاني اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولادًا لابراهيم . ها ان الفأس وُضعت على اصل الشجر فكل شجرة لا تثمر ثمرة جيدة تقطع وتلقى في النار . »

٣٩) عبد الضرير ، نزهة الناظرين ، ١٩٥ ؛ قابل بالانجيل، متى ، ٥ : ٢٨ : « ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه . »

٤٠) الغزالي ، احياء علوم الدين ٣ : ٧٤ ؛ الزبيدي، اتحاف السادة المتقين ، ٧ : ٤٣٣، قابل بالانجيل متى ٥ : ٢٨ .

مرّ يحيى بن زكريا عليهما السلام بقبر دانيال النبي[٤١] عليه السلام فسمع صوتاً من القبر يقول : سبحان مَن تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت ، فمضى ؛ فاذا هو بصوت من السماء : انا الذي تعززت بالقدرة وقهرت العباد بالموت ؛ من قالهن استغفرت له السموات السبع والارضون السبع ومن فيهن[٤٢] .

ذكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى انه قال : ان ابليس لقي يحيى بن زكريا عليهما السلام فقال له يحيى بن زكريا : اخبرني عن طبائع ابن ادم عندكم فقال ابليس : أما صنف منهم فهم مثلك معصومون لا تقدر منهم على شيء ؛ والصنف الثاني فهم بايدينا كالكرة في ايدي صبيانكم وقد كفونا انفسهم ؛ والصنف الثالث فهم اشد الاصناف علينا فنقبل على احدهم حتى ندرك منه حاجتنا ثم يفزع الى الاستغفار فيفسد به علينا ما ادركنا منه فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك حاجتنا منه[٤٣] .

ذكر عن يحيى عليه السلام ان ابليس بدا له وعليه مطارق فقال له يحيى : ما هذه ؟ فقال : هذه الشهوات التي اصيد بها بني آدم ، فقال له : هل تجد لي فيها شيئاً ؟ قال : لا الا انك شبعت ذات ليلة فثقلتك عن الصلاة ، قال : لا جرم اني لا اشبع بعدها ، قال ابليس : لا جرم اني لا انصح بعدها احداً ابداً[٤٤] .

لقي يحيى بن زكريا عليهما السلام ابليس في صورته فقال له : يا ابليس أخبرني باحب الناس اليك وابغض الناس اليك ، فقال : أحبّ الناس اليّ المؤمن البخيل وابغض الناس اليّ الفاسق السخي . قال له : لِمَ ؟ قال : لان البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي اخوف انّ يطلع الله عليه في سخائه فيقبله .

---

٤١) بين يوحنا (يحيى) ودانيال النبي أكثر من خمسمائة سنة حسب التاريخ .

٤٢) الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ١ : ٥ .

٤٣) السمرقندي ، تنبيه الغافلين ، ٢١٧ ؛ قابل بقصة القديس باخوميوس وقد ظهر له ابليس بصورة امرأة فاخبره عن التجارب التي بها يصطاد الناس ، راجع : حياة الاباء ، ١٣٥ يميناً ، طبعة روزفيد (Rosveyde) .

٤٤) الغزالي ، منهاج العابدين ، ٣٢ .

ثم ولى وهو يقول : لولا انك يحيى لما اخبرتك [٤٥].

وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام انه قال لابليس : هل وجدت مني شيئاً قط ؟ قال : لا ، الا انك ربما شبعت فثقلت عن الصلاة . فعاهد الله تعالى ان لا يشبع حتى يخرج من الدنيا[٤٦] .

انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ، اي لم نجعل احداً لم يذنب سواه ، لان يحيى من الحياة ، وقد احيا الله تعالى قلبه به فلم يذنب ولم يهم به . قال عليه السلام[٤٧] : ما من آدمي اخطأ او هم بخطيئة غير يحيى بن زكريا[٤٨] .

بلغنا ان الخبيث ابليس تبدى ليحيى بن زكريا عليه السلام فقال له : اني اريد ان انصحك ، فقال : كذبت انت لا تنصحني ولكن اخبرني عن بني آدم ، فقال : هم عندنا على ثلاثة اصناف ، أما صنف منهم فهم اشد الاصناف علينا ، نقبل حتى فتنته ونتمكن منه ثم يفزع الى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ، ثم نعود له فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن من ذلك في عناء . واما الصنف الاخر فهم في ايدينا بمنزلة الكرة في ايدي صبيانكم تلقيهم كيف شئنا ، قد كفونا أنفسهم . واما الصنف الآخر منهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء . فقال له يحيى على ذلك : هل قدرت مني على شيء ؟ قال : لا إلا مرة واحدة فانك قدمت طعاماً تأكله فلم أزل اشتهيه اليك حتى اكلت اكثر مما تريد ، فنمت تلك الليلة ولم تقم الى الصلاة كما كنت تقوم اليها . قال : فقال له يحيى : لا جرم ،

---

٤٥) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٣ : ١٧٦ ؛ مكاشفة القلوب ، ٥٥ ؛ الزبيدي ، اتحاف السادة المتقين ، ٨ : ١٩٩ ؛ ابن العربي ، محاضرة الابرار ، ١ : ٦٥ ؛ الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ١ : ٣٩٢

٤٦) الترمذي ، نوادر الاصول ، ٣٨٣-٣٨٤

٤٧) محمد في حديث مذكور عنه .

٤٨) الترمذي ، نوادر الاصول ، ١٨٥ ؛ يحيى لم يهم بذنب ؛ واما عيسى فقد عصم قبل مولده من كل ذنب .

لا شبعت من طعام ابدًا حتى اموت ، فقال له الخبيث : لا جرمَ ، لا نصحتُ آدميًا بعدك[٤٩] .

ان يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج امرأة ولم يقربها قيل لغض البصر ، وقيل للفضل في ذلك كأنه اراد ان يجمع الفضائل كلها ، قيل للسنّة[٥٠] .

ان الله تعالى لم يذكر في كتابه من الانبياء الا المتأهلين وهم خمس وثلاثون ، وقد ذكرنا آنفًا ان يحيى عليه السلام قد تزوج ، واما عيسى فانه سينكح اذا نزل من السماء ويولد له[٥١] .

مصرع يحيى

وقيل ان عيسى بعث يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلّمون الناس . قال : وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الاخ . . . وكان لملكهم ابنة اخ تعجبه يريد ان يتزوجها ، وكان لها كل يوم حاجة يقضيها ، فلما بلغ ذلك امها قالت لها : اذا دخلت على الملك فسألك حاجتك فقولي : حاجتي ان تذبح لي يحيى بن زكريا ، فقال : سليني غير هذا . قال : فلما أبت عليه دعا يحيى ودعا بطست فذبحه فبذرت قطرة من دمه على الارض فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر فجاءته عجوز من بني اسرائيل فدلته على ذلك الدم فالقى الله في قلبه ان يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن ، فقتل سبعين الفًا منهم في سنّ واحدة فسكن . . .

ثم ان ملك اسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا ويدني مجلسه ويستشيره في امره ولا يقطع امرًا دونه وانه هوى ان يتزوج ابنة امرأة له فسأل يحيى عن ذلك فنهاه عن نكاحها وقال : لست ارضاها لك . فبلغ ذلك امها فحقدت على يحيى حين نهاه ان يتزوج ابنتها فعمدت الى الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابًا رقاقًا حمرًا وطيبتها وألبستها الحلي وألبستها فوق ذلك

٤٩) عن وهيب بن الورد ، ابو نعيم الاصبهاني ، حلية الاولياء ، ٨ : ١٤٨

٥٠) ابو طالب المكي ، قوت القلوب ، ٤ : ١٥٣ ؛ في السنة ان النكاح خير من التبتل ، وقد قال النبي : خافوا لقاء الله عزّ وجلّ . . . وان سجدة واحدة من متأهل خير من الف سجدة من متبتل . . . الى ما هنالك من احاديث بهذا النوع .

٥١) ابو طالب المكي ، قوت القلوب ، ٤ : ١٥٥ ؛ انظر في ادناه ، الفصل التاسع .

كساء اسود فأرسلتها الى الملك وأمرتها ان تسقيه وان تعرض له فان ارادها على نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته فان اعطاها ذلك سألته ان تؤتى برأس يحيى بن زكريا في طست ، ففعلت فجعلت تسقيه وتعرض له ؛ فلما اخذ في الشراب ارادها على نفسها فقالت : لا افعل حتى تعطيني ما اسألك ، قال: ما تسأليني ؟ قالت : اسألك ان تبعث الى يحيى بن زكريا فأؤتى برأسه في هذا الطست ؛ فقال : ويحك سليني غير هذا ، قالت : ما اريد ان اسألك الا هذا . قال : فلما أبت عليه بعث اليه فأتي برأسه والرأس يتكلم حتى وُضع بين يديه وهو يقول: لا تحل لك . فلما اصبح اذا دمه يغلي فامر بتراب فأُلقي عليه فرقى الدم فوق التراب فلم يزل يلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي[٥٢] ...

٥٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧١٢-٧١٥ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١ : ٢١٤ ؛ الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٢٧٩ ؛ اما نهاية القصة كما يذكرها الطبري وناقله ابن الاثير ، فهي ان ام الجارية صعدت الى سطح قصرها فسقطت الى الارض واكلتها الكلاب ، وهي مأخوذة عن قصة ايزابال الملكة التي قتلت نابوت الايزرائيلي وقد تنبأ لها النبي ايليا عن ميتة كهذه ، وهكذا ماتت ولحست الكلاب دمها ، راجع سفر الملوك الثالث ، ٢١ : ١٩ ؛ ويتابع الطبري وابن الاثير والثعلبي . . القصة فاذا بالملك يختنصر تقوده امرأة من بني اسرائيل الى مكان غليان الدم وتخبره كيف يمكنه ان يفتح المدينة . وهكذا يقتل سبعين الفاً من اليهود فيسكن الدم . وتخرج بكل هذا قصة دانيال في جب الاسود وسبي اليهود الى بابل الى ما هنالك من المتناقضات . ولقد ادرك الطبري ذلك فقال عنه مستنداً الى اهل العلم من النصارى واليهود بانه « باطل عند اهل السير والتاريخ واهل العلم بامور الماضين وذلك باضم مجمعون اجمعون على ان بختنصر غزا بني اسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيا في عهد ارميا بن حلقيا وبين عهد ارميا وقتل يحيى اربعمائة سنة واحدى وستون سنة عند اليهود والنصارى » الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧١٦-٧١٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١٢ : ٢١٥ ؛ وهكذا يكون المؤرخ هم باصلاح تناقض تاريخي فسقط في آخر اذ ان اشعيا لم يكن في عهد ارميا وبين الاثنين اكثر من مائة سنة (اشعيا نبوءته حوالي ٧٦٠ ق. م . وارميا ، حوالي ٦٢٧ ق. م . ويقول ابن الاثير ، ١ : ٢١٥-٢١٦ ، نقلاً عن الطبري ، ١ : ٣ : ٧٢١-٧٢٣ : « اما ابن اسحاق فقال الحق . . . » ويسرد قصة رجوع بني اسرائيل من جلاء بابل وتكرارهم قتل الانبياء الى ان كان آخر من قتلوا يحيى بن زكريا؛ اذ ذاك بعث الله عليهم ملكاً من بابل اسمه جودرس أو خردوس أو جردوس ، وهذا بعث قائداً من عسكره اسمه نبوزاذان او نبوزراذان الذي جاء بيت المقدس فسأل عن سبب غليان

والنصارى تزعم ان يحيى ولد قبل عيسى بستة اشهر وان الذي قتله ملك بني اسرائيل يقال له هيرودوس بسبب امرأة يقال لها هيروذيا وكانت امرأة اخ له اسمه فيلفوس عشقها فوافقته على الفجور وكان لها ابنة يقال لها دمنى فاراد هيرودوس ان يطأ امرأة اخيه المسماة هيروذيا فنهاه يحيى واعلمه انه لا تحل له . فكان هيرودس معجباً بالابنة فألهته يوماً ثم سألته حاجة فأجابها اليها وامر صاحبا له بالنفوذ لما تأمره فأمرته ان يأتيها برأس يحيى ففعل فلما عرف هيرودوس الخبر اسقط في يده وجزع جزعاً شديداً ...[٥٣]

الدم فلم يصدقوه الخبر ، فذبح سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤسهم فلم يهدأ الدم ثم ذبح سبعمائة من علمائهم فلم يهدأ . ثم سأل وتوعد فاخبروه الحق . اذ ذاك يخاطب الدم ليهدأ فيهدأ . ويؤمن هو بدين بني اسرائيل ويخبرهم ان الملك اقسم بان يسيل دماءهم في وسط عسكره . ولكي يفي بقسم سيده يقتل « خيلاً وحميراً وبقراً وغنماً وابلاً ويجري عليه ماء فيجري الدم في العسكر ويضع القتلى الاولين فوق المواشي فيرى الملك الدم والقتلى فيقول له كفى » — ولا بد من الاشارة الى تناقض اخير وهو مجيء نبوزردان في زمن يحيى ، وقد ذكره الكتاب المقدس في كلامه عن هدم الهيكل وسبي بني اسرائيل الى بابل . وكان ذلك تحت قيادته ، سنة ٥٨٧ قبل المسيح ويحيى ، راجع الكتاب المقدس ، سفر الملوك الرابع ، ٢٥ : ٨ .

تجد القصة ذاتها عند اليهود وهذه فقرة منها : « واذ وجد نبوزردان في ذلك الوادي دم النبي زكريا وهو غير زكريا ابي يحيى بل زكريا بن براخيا الذي تكلم عنه الانجيل) سأل السكان : ما هذا الدم ؟ فاجابوه اولاً : انه دم الحيوانات التي تقدم في الهيكل (هكذا حرفياً عند ابن الاثير) . ولكن اذ احرجهم بالسؤال اعترفوا له انه دم النبي الذي قُتل منذ سنوات ، عند ذاك اجابهم قائد الملك البابلي : سأهدئ هذا الدم ، وهكذا فبعد ان قتل كثيراً من الشبان فتيات واطفالاً مازجاً دماءهم بدم النبي ما برح الدم يغلي ، فقال نبوزردان عندئذ : زكريا ، زكريا لقد قتلتُ افضلهم اتريد ان اقتلهم جميعاً ؟ والحال هدأ دم النبي » ، راجع التلمود البابلي ، بابلي ، حتين ، ٥٧ شمالاً .

٥٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١ : ٣ : ٧١٩ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١ : ٢١٣—٢١٤ ؛ الثعلبي ، عرائس المجالس ، ٢٨٠ ؛ اما المصدر الحق المنسوب الى النصارى فهو هذا كما تجده في الانجيل : « . . . لان هيرودس كان قد ارسل وامسك يوحنا واوثقه في السجن من اجل هيروديا امرأة أخيه فيلبس لانه كان قد تزوجها فكان يوحنا يقول لهيرودس انه لا يحل لك ان تكون لك امرأة اخيك . وكانت هيروديا تترصده وتريد قتله فلم تستطع لان هيرودس كان يخاف من يوحنا لعلمه بانه رجل بار وقديس ويحافظ عليه

وفي الخبر ان الشمس بكت على يحيى اربعين صباحاً وكان بكاؤها ان طلعت وغربت حمراء. ويروى ان يحيى سيد الشهداء يوم القيامة وقائدهم الى الجنة والله اعلم[٥٤].

يحيى يوم القيامة

ان الموت يُجاء به يوم القيامة في صورة كبش أملح يعرفه الناس ولا ينكره احد فيُذبح بين الجنة والنار. روي ان يحيى عليه السلام هو الذي يضجعه ويذبحه بشفرة في يده والناس ينظرون اليه[٥٥].

فان الله يُظهره يوم القيامة في صورة كبش املح ويُنادى: يا أهل الجنة فيشرئبون، ويُنادى: يا أهل النار فيشرئبون، وليس في النار ذلك الوقت الا اهلها. فيُقال للفريقين: أتعرفون هذا، وهو بين الجنة والنار، فيقولون: هو الموت. ويأتي يحيى عليه السلام وبيده الشفرة فيضجعه ويذبحه وينادي مناد: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت! وذلك يوم الحسرة[٥٦].

وكان يصنع اموراً كثيرة على حسب ما سمع منه ويصغي اليه بانبساط. ولما كان اليوم الموافق وقد صنع هيرودس في مولده عشاء لعظمائه وقواد الالوف واعيان الجليل دخلت ابنة هيروديا ورقصت فأعجبت هيرودس والمتكئين معه فقال الملك للصبية: سليني ما أردت فأعطيك وحلف لها ان مهما سألت مني أعطيك ولو نصف مملكتي فخرجت وقالت لامها: ماذا أسأله، قالت: رأس يوحنا المعمدان. وللوقت دخلت على الملك مسرعة وسألت قائلة: اريد ان تعطيني على القور رأس يوحنا المعمدان في طبق. فاستحوذ على الملك حزن شديد ولكنه من اجل اليمين والمتكئين معه لم يرد ان يصدها، ولساعته أنفذ سياقاً وأمر أن يأتي برأسه في طبق. فانطلق وقطع رأسه في السجن وأتى برأسه في طبق ودفعه الى الصبية فدفعته الصبية الى امها. ◄ مرقص ٦: ١٧-٢٨؛ متى ١٤: ٣-١٢ ►.

٥٤) الثعلبي، عرائس المجالس، ٣٨٠.

٥٥) ابن العربي، الفتوحات المكيّة، ١: ٢٤٥؛ ٤: ٣١٩.

٥٦) ابن العربي، الفتوحات المكيّة، ١: ٣٥٢؛ ٣: ١٣٣، ٢١٥، ٢٤٥؛ وكذلك قال ابو قيس في كتاب خلع النعلين؛ وقال غيرهما: «يتولى جبريل ذبح الموت لا السيد يحيى»، الشعراني، مختصر تذكرة الامام القرطبي، ١٠٩.